# في الزمن الغريب

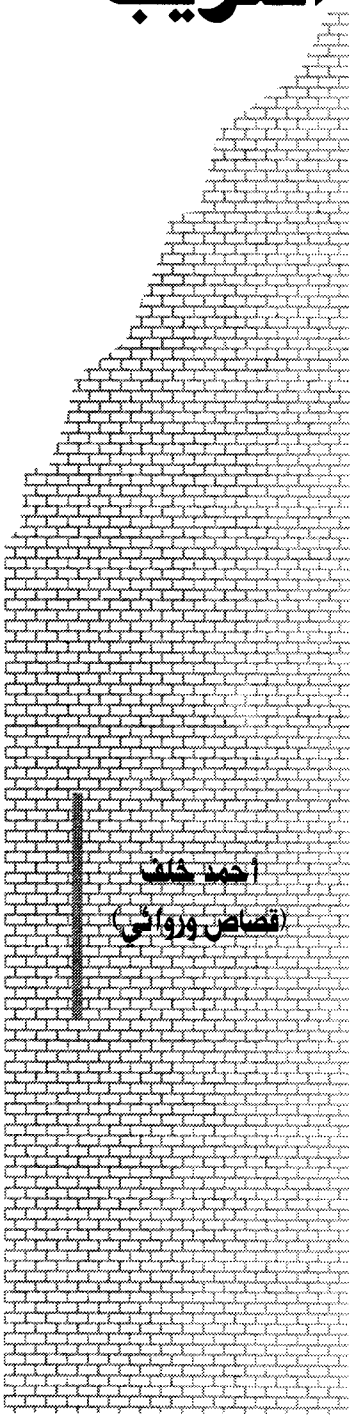


ـ ١ ـ

لعلّ هذا الزمن هو أغرب الأزمان العربية، بل أكثرها شذوذاً. إنّ له مذاقَ الفحم في الفم، ولا أحد بقادرٍ على فكّ طلاسمه والتخلص من قوته، حتى خيل إلينا أنّه الزّمنُ العراقيُّ المحاصَرُ وحده. لقد تمرّس بالإيذاء والتدمير طويلاً؛ زمن طويل مضى وهو يجثم على صدورنا يمزّقُ منا الحشا والأفئدةَ والأكبدةَ دون حياء. ومن الصعب، بل العسير جداً، نقلُ الصورة أو لملمةُ النثار، ولكنْ لا بدّ لمن عاش ورأى أن يتركَ أثراً مهما بدا ضئيلاً إزاء حجم المأساة وعمق البلوى.

في كل يوم، أرى الناس، صباحاً ومساءً، يلهثون للحصول على لقمة العيش. أرى الأمهات الصابرات الصاغرات وقد جعلتْ رائحةُ العوز والفاقة ثيابَهنّ أسمالاً يُرثى لها، يقدِّمْن زاداً وهمياً لصغارهنّ، لا طعم له ولا طعام فيه، مكوّناً من حساء البصل والحمص وكميات من الكرفس والكرّاث والرُّشاد، ويمضين النهارَ بطوله بحثاً عن كميةٍ من طحين الخبز دون جدوى. وتهالك العديدُ من الأطفال صرعى المرض والموت البطيء.

أيمكن أن تتبرأ الأمُ من وليدها لجوع اجتاح العائلة بأسرها؟ أيحدث مثلُ هذا في القرن العشرين؟ لقد رأيتُ آباءً يعلنون عدمَ حاجتهم إلى ثلاثة أولاد أو أربعة فتيان لأنهم ـ أي الآباء ـ غير قادرين على عوْلهم. رأيتُ فتياناً آخرين يشتغلون منذ ساعات الصباح الباكر حتى المساء يبيعون أوراقَ اليانصيب المزيّفة، أو قطعَ الحلوى التي حرَموها أنفسَهم ليعودوا في المساء بالربح الضئيل لأهاليهم. رأيتُ مرضى، شيوخاً وعجائزَ، ماتوا لشحّةٍ في الدواء أو نقص في الغذاء والعناية. رأيتُ حشداً من الأمراض يَرْتع في مرابعنا، والجوعَ سيداً يتنقل بين البيوت دون منازع.

ماذا علينا أن نفعل؟ أنلوذ بجلودنا ونهرب، أمْ نتماسك وسط الموج العاتي؟

ـ ٢ ـ

في العام ١٩٩٤، حين عدتُ من عمّان في زيارةٍ لم يكتمل يومُها السابع، فوجئتُ بالأشياء من حولي تتراجع بصورةٍ صارخةٍ ويزول آخرُ بريقٍ لها. لقد شاعت وسائلُ التدمير في الدروب والطرقات، وبلغتْ محنةُ الناس أسوأ درجاتها، وراح الكلُّ يبحث عن عمل لكي يكسب نقوداً يشتري بها رغيفاً للمساء. لم أكن قد تعلمتُ أيةَ مهنةٍ من قبلُ غيرَ الكتابة، وهي في هذا الزمن الفَحْم لا تُجدي نفعاً، والأسعارُ في ارتفاعٍ مَخيف بحيث لا يمكن خلقُ حالةِ توازنٍ بين الإمكانات الذاتية وبين السلعة المعروضة في السوق. اذن، لا بدّ من البحث عن وسائل عيشٍ مناسبةٍ؛ وكلّما فكرتُ في تلك الوسائلِ لازمني ضيقٌ شديدٌ مما فعلناه في ما مضى من أيام، إذ إننا لم نتعلم خلالها أيةَ مهنةٍ من المهن الأخرى تقينا الضررَ من خطوب الدهر وصروفه.

في البداية أعلنتُ بإصرار أنّي غير قادر على العمل في أيّ مجالٍ غير الكتابة. ولكني وجدتُ أنّ الكتابة قد فقدتْ بريقها في أول الطريق إلى الجلجلة. وتلاشتْ إمكاناتُها على إسعافنا، وغَدَتْ من المهن الفاسدة التي لا تَعُول صاحبها. ولم يكن غريباً عنّي إدراكُ محنتها في العالم العربيّ أو في العالم الثالث كله. فماذا تعني لكَ الكتابةُ وسط الجوع، والسرقةِ، والمرض، وارتفاعِ الأسعار، وسقوطِ أعزّ الأصدقاء صرعى الجلطة القلبية أو الدماغية، أو وسط الانهيارات المتلاحقة لعدد غير قليلٍ من صُنّاع الكلمة الجميلة الذين تَفْخر بأنّك واحدٌ منهم ومن أبناء جيلهم الذي راح يُسْلم قيادَه للريح المزمجرةِ خلف الأبواب تهدُّ النوافذَ والأركانَ؟ إنها ريح صفراء لا ترحم، لا يستطيع المرءُ أن يلتقط أنفاسه فيها. وأية أنفاس تريد وسط المعمعة الصاخبة، حيث أُشيعتِ اللصوصيةُ والخديعةُ والتسولُ، وابتدع الناسُ مهناً لا حصر لها، وأنت دونما مهنةٍ تقيكَ وابلَ العوز أو الموتِ المجانيّ الذي تراه بأم عينيْكَ، يتمشّى صباحاً أو في الليل؟

يا لَجسدكَ المتداعي، ويا لَمهنتكَ الفاسدة: ثروةٌ مؤجّلةٌ إلى أزمان لا تراها العينُ ولا يحدسها الخاطر! ألم يقل صلاح عبد الصبور، ويصرخ جزعاً: «يا لَلشعر من مهنةٍ صعبة؟!».

إذن، ماذا سيفعل كتّابُ العراق، شعراء وأدباء وكتّابَ قصةٍ وروايةٍ، كي يردموا الهوّةَ العميقةَ بينهم وبين هذا الزمن العراقيّ المحاصرِ بكل أنواع الحصار؟ وأن يُفرض عليك الحصارُ، فذلك يعني أن تصبح حريتُكَ ووعيُكَ وطاقتُكَ، بل وإنسانيتُكَ، في امتحانٍ عسير، وكأنّ الصيحة الأولى تعاود من جديد: ﴿فاذْهَبْ أنتَ وربُّكَ﴾ يا موسى. ولكنْ إلى أين يذهب موسى في هذه اللُّجاجة وتلك العجاجة، وكلُّ شيءٍ يدور من حوله يصرخ بالنكران والتجنّي؟

ثم جاءت التفاتةٌ نادرةٌ من صديقيْن يبيعان الكتب في شارع المتنبي، وهو شارعُ الكتب والمكتبات والباعةِ يعرضون بضاعتهم على المتبضّعين الذين تقبض أيديهم على حفنة من نقودٍ، مترددّين في الشراء متعثّرين في التبضّع من أرتال الكتب التي تكدّستْ على رصيف السوق.

ويقال إنّ سوق المتنبي هو أكبر سوقٍ للكتب في العالم... على أننا في العراق نحتفظ أيضاً بأكبر مقبرةٍ في العالم؛ وبين الكتب والموت خطوةٌ واحدةٌ دائماً.

قلتُ: لا مفرَّ من دخول التجربة وخوض غمارها. وكان صديقي الأول محمد ثامر يوسف، وهو شاعرٌ ومعنيٌّ بالفن التشكيليّ وبائعُ كتبٍ معروف في السوق، قد اقترح عليَّ النزولَ إلى سوق شارع المتنبي لأنها الطريقة الوحيدة والمتيسرة أمامي للاستفادة من بيع الكتب. وبالفعل نزلتُ إلى البحر لأنّ العدوَّ ورائي يشهر سلاحَه. ولكي أستطيع البقاء على اليابسة لئلا أغرق مع الآلاف من صرعى الحصار، كان ينبغي التخلي عن ثياب الأمير، خصوصاً أنّ الإصرار يحدونا ألاّ نمدَّ أيدينا إلى أحد من القريبين منا، حتى لا يشمت بنا المتهافتون والكذّابون. وبالفعل نزلتُ إلى الشارع تَصْحبني أربعمائة كتابٍ من مختلف صنوف المعرفة والثقافة.

وبدأتْ حدودُ التجربة المريرة. إلى أين ستمضي هذه الكتب التي أعرفها وأكاد أشمُّ رائحتها وأُدرك مغزى صفحاتها؟ بعضُها سهرتُ معه الليالي الطوالَ دون ادّعاء، وبعضها ظلّ عسيراً على الفهم دون تواضُع، والبعضُ الآخر استقرّ في القلب وَحَفَر له في الخاطر مرتعاً خصباً. إلى أين ترحل حبّاتُ القلب وتَهْجر بيتي وتغادر مكتبتي؟ وفي أيّ الأماكن والبيوت ستستقرّ كتبُ الذين أحببتُهم وعلّمتْ أولادي أسماءَ مؤلّفيها؟ آه، أيتها الكتابة، ثلاثون عاماً من العسر واليسر تقف شامخةً أمامي، منتصبةً، يُسندها عمودٌ من الحزن الثقيل. عن أيّة كآبةٍ يحدِّثكَ المتبطرون؟ ها هو الحزنُ العنيد يتمشّى مع العراقيين على أرصفة الشوارع، ويدخل معهم البيوت، ويجتاح المنازل. وبالقدر الذي كانت التجربة غامضة أول الأمر، راحت مَدَياتُها تتسع وتحطّ على كاهلي. فقد بحثتُ عن أولئك الأدباء والكتّاب الذين اضطروا إلى العمل في مهنٍ أخرى إلى جانب الكتابة، عندما أحاطهم العوزُ ودفعهم إلى البحث عن وسائل عيشٍ مناسبةٍ تقيهم اللجوءَ إلى الكتابة السهلة السريعة المداجية. كان عليّ احتمال قوة الوقوف على رصيف الشارع للبيع والشراء. أدباء وفنّانون وصحفيون يمرون بي مندهشين مما يحصل، وقد كتب عددٌ من الأصدقاء عني في بغداد والأردن والخليج وبلاد الغرب، كتبوا عن تجربتي القاسية، عن المحنة التي يمر بها الأديبُ العراقي. وكان لا بدّ من تعلم أسرار اللعبة وقواعدها؛ فكما يقال: «التجارة شطارة». إلا أنني لم أكن شاطراً في هذا المجال على الإطلاق، إذ كلما بعتُ كتاباً ثميناً تحسَّرتُ عليه، وكلّما هممتُ في بيعه ترددتُ، وغالباً ما أعود لأحتفظ بهِ في مكتبتي الخاصة، الأمر الذي جعل الخسائر تتوالى وتعلن فشلَ صاحبها.

يقابل هذا شرطٌ مهمٌ في عملية شراء الكتاب، وهي أصعب التجارب التي لا بدّ من المرور بها. فمن المستحيل حملُ الكتب إلى البيت والعودةُ بها، ويجب إيجاد مكان مناسب لوضعها فيه داخل السوق. الصديق الثاني، وهو القاص حنون مجيد، لم يتركني أعاني طويلاً في أمرٍ بدا لي غايةً في الصعوبة، بل فتح لي ذراعيْه حين رآني في حيرة من أمري. فقد كانت لديه غرفةٌ خاصةٌ داخل إحدى العمارات في شارع المتنبي، استأجرها منذ زمنٍ لحفظ كتبه. فما كان منه إلا أن أفرد لي فيها زاويةً خاصةً بكتبي.

ـ ٣ ـ

على أنّ أصعب ما في العملية كلها هو تلك اللحظات التي تباشر فيها الإعدادَ للخروج من المنزل إلى السوق، وهي ساعات تمتاز بالقلق والاضطراب من العودة دون ربح أو بيع. وكثيراً ما حصل ذلك في أيّام محدّدة، أبرزُها أيامُ ارتباك العلاقة مع الأمم المتحدة أو قيام «الحلفاء» بالغارات على القطر. ولكنّ هذا الظرف العصيب لم يمنع من الحصول على الكتب النادرة، القليلة التداول، والفوز بها، أو التمتع بقراءتها. ولقد اكتشفتُ كنوزاً من المعرفة، وتمكنتُ أيضاً من تخصيص مكتبتي الخاصة بجزء من هذه الكتب التي كنتُ أشتريها بكميات كبيرة، لأني فقدتُ في المقابل عدداً من المراجع والروايات المهمة.

والحق أنني لم أكن وحدي مَنْ يبيع ما يجدهُ قريباً منه، بل كثيرون فعلوا مثلي، ولاسيّما أولئك الذين تدهورتْ قدراتُهم الشرائية وأصبحوا في حالةِ عوزٍ جعلتهم يستهينون بأشيائهم الثمينة وغيرها، فباعوا المكتبات التي عاشت معهم دهراً من السنين. كما باعوا أثاثَ البيت وأدواتِ المطبخ (ماذا سيطبخون؟)، وأبوابَ المنازل ونوافذَها (ممَّ يخشَوْن على منازلهم وماذا سيجد اللصوص فيها؟) بل وأسرَّةَ النوم، وقسماً كبيراً من ثيابهم. رأيتُ رجلاً يقتلع بابَ البيت الخارجيّ المصنوع من الحديد ليبيعه بثمنٍ مرتفع، لأنه لم يعد يفكّر باللصوص الذين تكاثروا كأسراب الغربان في ليلٍ بهيم؛ لصوص احترفوا حاجياتٍ دون أخرى، إطارات السيارات، قناني الغاز، الملابس المستوردة، الحقائب الجلدية، التحفيات النادرة، اللوحات الزيتية، مسجّلات الصوت والراديوهات! ومن البساطة أن يتساءل المرءُ عن الكيفية التي دفعتِ الناسَ إلى امتهان اللصوصية، وفقداناً الثقة بالغد. لكنّ السائل لن يجد جواباً شافياً، لأنّ اللصوصية غدت لدى هذا النفر من الناس نزعاتٍ وهوياتٍ تعنى بصنفٍ دون آخر. وقد نسأل: ومن يحدِّد تلك النزعات الخاصة لدى اللص؟ فعلى سبيل المثال، مَنْ يحدِّد دوافعَ سرقة الأطفال والفتيان الصغار

لتحويلهم إلى متسوّلين، أو لبيع أجزاءٍ من أجسادهم؟ ويقوم السارق أو اللص ببيع ما استطاع السطوَ عليه في الليلة الفائتة، وكثيراً ما عثر المسروقُ على حاجاته المسروقة تباع في وضح النهار، لكنه لا يملك الدليل القاطع. ولا يجد السارقُ صعوبةً في بيع الحاجيات المسروقة، لأنّ أشكالاً أخرى من الأسواق وُجدتْ من العدم. وأقرب الأمثلة على فوضى الأسواق تلك السوق التي أطلق عليها «سوق مريدي» وهي خليط عجيب من الحاجيات؛ وقد ضُرب بها المثل حتى قالوا: «يمكنك العثورُ على ضالتك في سوق مريدي» حتى لو كانت غايتكَ جوازُ سفرٍ إلى المريخ! وأغلب الظن أنّ هذا هو زمن الشرائح الطفيلية التي تتكاثر وتطفو على السطح كالأشنان الضارة. لقد عرف مجتمعنا شرائح وفئات مختلفة من هؤلاء؛ وإذا كان لا بد لي أن آخذ ببعضهم مثلاً، فليكنْ من داخل التجربة التي عشتُ فيها أربع سنوات متتالية.

فكيف يمكنك مثلاً أن تحزر كتاباً ثميناً للطبري أو ابن تَيْمية أو لأيِّ عالم أو فقيهٍ ارتفع ثمنُ كتابه وأصبح نادراً بسبب سرقته أو بيعه بالعملة الصعبة على «تجّار عرب» جاؤوا مستغلّين فَرْق العملة، ليُفْرغوا البلد من خزانة كتبه ومعارفه ولتضمحلّ شخصيتُه في نهاية المطاف ويبهتَ عنوانه ويتلاشى تراثُه في زمن الحصار؟ كيف يمكنك أن تعرف هذا الكتاب إذا كان غلافُه الأولُ والأخيرُ صحيحاً، ثم ترى تبويبَه لا غبار عليه، وما عليك إلا أن تدفع الثمن إذا كنتَ في حاجةٍ ماسةٍ إليه، لتكتشف من بعدُ أنّ الكتاب المطلوبَ ليس أكثر من كتابٍ مزيَّفٍ استُنْسخَ ما هو صحيحٌ فيه بصورة جيدة، وأصبح لا يعادل ثمنَ روايةٍ أو مجموعةٍ شعرية؛ فقد تم ترتيبُ كلِّ شيءٍ يمتّ للكتاب الأصل لكي تمرَّ عليك الخديعةُ. وقد بلغ الأمرُ أن اضطرَّ عددٌ من المعنيِّين بجمع الكتب النادرة إلى عرضها على مختصين لتمييز المزيَّف من الأصيل. أما تجّار المخطوطات، فأمرهم غايةٌ في الدهاء والحيلة. ولعلّ موضوع المخطوطات العراقية النادرة من الموضوعات التي تثير ألماً خاصاً في نفوس المثقفين العراقيين، الذين يشاهدون أمام أعينهم كيف يتم تهريبُ ثروتهم الوطنية من خلال تجّار عربٍ وبدفعٍ من أنصاف المثقفين [العراقيين] وأدعياء المعرفة التراثية. ولا أظنّ أحداً ينسى ما قام به عددٌ مماثلٌ من محترفي سرقة اللوحات الفنية التشكيلية العريقة لفنانّين عراقيين كبار. وقد اختصّ هؤلاء المتطفلون بتهريب أفضل اللوحات والآثار خارج القطر بعد عملية شراءٍ بخسةٍ من أصحابها، أو من ذويهم، أو من أصدقائهم، ليتكفل التجّارُ بعد ذلك بعمليةِ تهريبٍ منظّمة. وما يحزّ في النفس أن يساهم عددٌ من المثقفين والفنّانين بهذه الجريمة الوطنية والقومية، ولكنْ دون رادعٍ من ضمير أو خشيةٍ من تاريخ.

غيرَ أنّ ما يهدّئ الخاطر أنّ أيّاً من هؤلاء السماسرة لم يكن موهوباً أو ممّن يُشهد له بالباع الطويلة. كما أنّ ما يثير الرضا، ويطمئن القناعةَ في الغد، هو أن عملية الاستنساخ لعبتْ دوراً مزدوجاً في الثقافة في العراق: ففي الوقت الذي لجأ فيه المزيِّفون واللصوصُ إلى استنساخ الكتب والمخطوطات لغرض بيعها بعد تهريبها إلى الخارج، اضطرّ إلى عملية الاستنساخ عددٌ كبيرٌ من المثقفين والأدباء العراقيين لمواكبة حركة الثقافةِ العربية النامية والمتطورة، والثقافةِ العالميةِ المتصاعدة. فقد تلقّفوا تلك الكتبَ النادرةَ الاستعمال والتداول في الفلسفة والنقد الأدبيّ الحديث والتاريخ، وفي السياسة والاقتصاد والأدب بغيةَ استنساخها وتداولها في ما بينهم للتعويض عن النقص الذي أحدثه الحصارُ في ثقافتهم... التي ظلّت، حتى الآن، توازي لديهم لقمةَ العيش وحليبَ أطفالهم وخبزَ الأسرة.

## ـ ٤ ـ

إذن، أنقذتُ نفسي حين ابتدعتُ لي مهنةً في الزمن الصعب، الذي ما مرّ منه يومٌ إلا وكان مذاقُهُ في الفم كغبار الفحم. ولقد تجاوزتُ في هذه المهنة كلَّ المخاطر التي أشرتُ إليها. على أنّ تجربتي، هنا، أكّدتْ لي أنّ الإنسان قادرٌ على الإتيان بأفعالٍ مجيدةٍ يصون فيها كرامَتَهُ وشرفَهُ من التدهور والمنزلقات، التي لن تجلب له سوى الضرر والندم، فلا يضطرّ إلى السرقة والفساد. وقد أعفاني القدرُ من الاثنين بفضل ركوبي ـ وغيري من المثقفين العراقيين ـ متنَ المغامرة غيرِ المتوقعة في بيع الكتب، وهي إحدى تجاربي التي اعتزّ بها. ففي الوقت الذي كان فيه عددٌ من الأدباء يُلْقون كتبهم على الباعة خلسةً لكي يبيعوها لهم، ثم يتوارَوْن في الظل بعيداً عن أعين الشامتين، وقفتُ في وجه العاصفة، ولم أتنكر لهذهِ التجربة القاسية، ولكنني أنكر زمنَها الغريبَ بل والعَنَهُ.

كان لا بد من تأشير حالتي في السوق أو خارجه. فلجأتُ خلال السنوات الأربع إلى كتابة عددٍ من اليوميات غير المنتظمة، وأظنّ أنّ بعضاً من فقرات هذه اليوميات استطاعت أن تعطي صورةً مناسبةً لمعاناة شعبنا ومثقفيه في زمنٍ لا يمكن الإمساكُ به، أو السيطرةُ عليه. فالذين هم في داخل هذا الزمن أكثر قدرةً من غيرهم على ترجمة صفحاته السود، التي عاناها الأديبُ والمبدع في العراق. □